مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٧) العدد (٣)
الإصدار الثالث والعشرون
٢٠٢٤ (١٤-١)

القراءة السننية للقصص القرآني

الب أرسلان بشير اوغلو
جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٣٠ يونيو ٢٠٢٤م

الملخص

تشكل السنن الإلهية والقوانين الربانية في عقيدة المسلم جزء من رؤية كونية شاملة، مدارها ومحورها الرئيس؛ "الإيمان والتوحيد" فالكون يسير وفق سنن مضبوطة، وقوانين ثابتة، ربانية تماما، ولا تُحابي أحداً، ولا تتخلف أبدا.

حيث تعرف السنن بانها قوانين الله سبحانه وتعالى في الخلق في الأنفس، وفي الأمم والدول والشعوب .

ولما كانت القصة القرآنية احد أساليب البلاغ الرباني الذي يتمثل في الاخبار و الاحكام والامثال والقصص والمواعظ و العبر، كان لا بد من معرفة السنن التي تبرزها هذه القصص، وتسخير هذه السنن في فهم الواقع و تلمس الحلول المختلفة لمشاكله ونوازله .

تبحث الدراسة في مفهوم السننية، وانواعها، في القصص القرآني و أهدافه، ومن ثم كيفية استفادة الامة من القوانين والسنن الموجودة في القصص القرآني وكيفية تفعيلها وتوظيفها من اجل نهضتها وارتقائها بين الأمم وفق سنن الله الثابتة والمبثوثة في هدايات الكتاب العظيم.

الكلمات المفتاحية: السننية، القصص القرآني، القوانين الربانية، النهوض الحضاري.

*** مشكلة البحث**

هذا البحث يجيب عن التساؤلات الآتية: -

١- هل القصص القرآني يحوي سنن الهية ثابته وقوانين واضحة المعالم، تبين وترشد المسلمين في دياجير الظلام، ام انها مجرد قصص فيها العبرة والفائدة فحسب؟

٢- هل تشكل السنن الإلهية قوانين ثابته لا تتخلف ام انها عرضة للاستثناءات والتغيير.

٣- ما هو أثر فهم السننية في حركة المجتمع الاسلامي، وحركته نحو النهوض والرقي.

*** أهداف البحث**

١- تبيين مفهوم السنن وتأكيده ضمن السياقات القرآنية المختلفة، والوقوف على القصص القرآني واستنباط بعض السنن من خلاله، التي تضبط الحركة الفاعلة للأفراد والأمم – ترسيخ المفهوم الاساسي في سنن التغيير المتضمن لقوله تعالى: "مفهوم ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

٢- نشر الوعي السنني، والدعوة إلى العمل به، والسعي إلى تطبيقه، ليشكل خارطة طريق، يعرف بطبيعة الأزمة التي تمر بها الأمم والمجتمعات، ويحدد معالم الخروج منها والأخذ بأيديها إلى النجاة والفلاح والصلاح.

*** منهج البحث**

اعتمدنا في البحث المنهج الاستقرائي في تجميع الآيات والهدايات من القصص القرآني واستنباط دلالتها، وكذلك المنهج التحليلي في فهم النصوص، والوقوف على السنن الالهية في بعض قصص الكتاب العزيز.

*** أهمية البحث**

تتجاوز أهمية البحث الناحية النظرية الى الناحية التطبيقية، حيث ان استقراء السنن الإلهية المنتشرة في القصص القرآني يمكننا من معرفة القوانين الحاكمة للأفراد والأمم و الشعوب وفهم حركة التاريخ، واستبصار طرق الوصول وسبل النهوض .

*** الدراسات السابقة**

هناك عدة دراسات تناولت مفهوم السننية، بشكل عام منها:-

١- الفكر السنني عند ابن خلدون (ت 808 هـــ): دراسة وتحليل" أطروحة دكتوراه للباحث إبراهيم حداد في جامعة السعدي بتطوان

٢- ومنها التفسير السنني مفهومه، مصادره واقسامه للباحثة د. فاطمة دوقية

٣- بالإضافة الى بحث " السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القران الكريم " وهي رسالة ماجستير للباحث ايمن غنام في جامعة ام القرى، وبحث عماد عبد الكريم خصاونة، السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، وغيرها من الأبحاث وان كنت لم أقع على دارسة معينة تبحث في السننية في القصص القرآني بشكل خاص.

*** مقدمة**

إن أفضل ما تبذل إليه الهمم، وتصرف فيه الأعمار والاوقات، العلم بسنن الله في خلقه، الدالة على كمال عظمته وقدرته وعلمه، والمعرفة بنظام وجوده وقوانينه، والمخبرة عن مساره ومآلاته وتحولاته، والحاكمة على آجاله وعمره، فللأمم أعمارا كأعمار الأشخاص.

والقرآن الكريم يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض. يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعاً في الحياة; فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والاحداث مفهومة في سياقها فهي لا تحدث اعتباطا ولا تمضي جزافاً، من ذلك قوله تعالى: "قد خلت من قبلكم سنن"[1]، وقوله سبحانه : "سنة الله التي قد خلت في عباده"

[1] آل عمران:137

[2]، وقوله عز من قائل:"سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا[3]"

انما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. و لم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، فتخرق لهم القوانين و العادات، انما هي قواعد ثابته وقوانين راسخة لا تحابي أحدا .

وعلى الرغم من أن مفهوم السننية من اهم القضايا الجديرة بالتوقف والبحث، الا انه لم يلق العناية الكاملة من المتقدمين من المفسرين، ولا يضير هذا الامر، بل لعله يؤكد على أمر هام وهو حيوية النص القرآني، وكأن هذا القران ما زال يتنزل بمعانيه و مضامينه وهداياته وقوانينه وسننه.

ومازال يكشف لنا الكتاب العزيز كل يوم، كل جديد ومعين على السير الرشيد.

وقد قدم الإمام ابن خلدون من خلال مقدمته، رؤية وفلسفة سننية تكشف عن علل الأمة وأزماتها، وعوامل تخلفها ونكوصها وتقاعسها، وسنن إصلاحها.

وكذلك اشار رشيد رضا الى ذلك، ونبه على هذا المفهوم في تفسيره "المنار"، حيث ذكر عند تفسيره لقوله تعالى} :إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم: بأن إنعام الله على الأقوام والأمم منوطة ابتداء ودواماً بأخلاق وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الأخلاق والأعمال متمكنة منهم، ومتأصلة فييهم ومستمرة في مجتمعاتهم، كانت تلك النعم ثابتة ومستقرة، و لم يكن لينـــزعها منهم انتزاعاً بغير ظلم أو ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك الأخلاق والأعمال، غيَّر الله ما بأنفسهم، وأخذ منهم ما أنعم به عليهم. هذا هو قانون التغيير في الانفس ينطبق على الافراد و الجماعات والشعوب.

في حين فقد بين ابن عاشور هذا الامر ضمن إشارة عابرة، و من ذلك ما ورد في تفسيره لقوله تعالى :" قد خلت من قبلكم سنن"، قال: في الآية دلالة على أهمية قصص الغابرين؛ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها" .

ونريد ضمن هذه الدراسة تبيين مفهوم السنن وتأكيده ضمن السياقات القرآنية المختلفة والوقوف بشكل خاص على القصص القرآني واستنباط بعض السنن من خلاله.

*** مفهوم السننية واقسامها وخصائصها**

أولاً– تعريف السننية

وردت السننية في القرآن الكريم بعدة مواضع، بل وردت لفظ "سنة "تحديداً في ثماني سور، ثلاثة عشرة مرة، كقولة تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾[4]،

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[5]،

[2] غافر:85
[3] الفتح:23
[4] [سورة الإسراء: 94].
[5] [سورة الأحزاب: 62].

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.[6]

ووردت بصيغة "سنة " مرة منفردة في سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾.[7]

وكذلك جاءت بصيغة سنن مرتين في سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.[8]

وكذلك في سورة النساء: ﴿يرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[9]

فالسنة لغة: مأخوذة من "سن "ولها أصل واحد مستمر، وهو جريان الشيء واطراده في ليونة وسهولة. إذاً السنة في اللغة هي" :الطريقة، مرضية كانت أو غير مرضية"[10].

ومما اشتقَّ منه: السُّنَّة، وهي السّيرة. وسُنَّة نبينا الله عليه السلام: سيرته... وإنّما سمِّيَت بذلك لأنها تمشي جريًا. ثمَّ يحمل على هذا: سَنَنْتُ الحديدة أسُنُّها سَنًّا: إذا أمْرَرْتها على السِّنان، والسِّنان هو: المِسَنّ... والسِّنان للرُّمح من هذا؛ لأنّه مسنون، أي: ممطول محدد"[11].

أما السنن اصطلاحاً: فإنها تتعلق بشكل واضح بالمعنى اللغوي، والمراد بها اصطلاحاً هنا: سنّة الله في الأمم هي قوانينه الحاكمة.

وأصل السنن جمع سنة: وهي الطريقة المستقيمة[12].

إذاً يمكننا وفق ذلك تعريف سنة الله كما يلي:-

الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر -بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم-، والنظام الذي أقام عليه الكون والحياة، والقوانين التي بثّها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته. وهي توصف بصفة الربانية والعموم والشمول والثبات والتسخير والتوازن والانتظام والنفاذ والصلاحية لكلّ زمان ومكان.[13]

إذاً سنة الله هي القانون العام، الذي يحكم الكون والإنسان والحياة وهذا القانون ثابت لا يتحول ولا يتبدل لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.[14] أما لو حللنا السننية كمفهوم قرآني فإنه

---

[6] [سورة الحجر: 13].
[7] [سورة الإسراء: 77].
[8] [سورة آل عمران: 137].
[9] [سورة النساء: 26].
[10] الجرجاني، علي (ت 816هـ)، التعريفات، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ، ج1، ص 40.
[11] ابن فارس، أحمد (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ - 1979م، ج3، ص 60-61.
[12] الشوكاني، محمد بن علي (ت 1255هـ)، فتح القدير، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج2، ص28.
[13] دوقية فاطمة الزهراء، التفسير السنني، مصادره واقسامه، ينظر كذلك علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، مركز الماجد للثقافة والتراث، دبي، ط1، 2017م، ص22
[14] [سورة الأحزاب: 62].

يقصد به بأن حياة الأمم، ومسيرها، ومآلاها في الدارين مرتبطة بمقدار تقيد هذه الأمم بقوانين الحياة، المتعلقة بقضايا الاستخلاف والتسخير والعبودية، فإن هذه الحياة تسير وفق قوانين ثابتة، فالسنن ليست إلا قوانين الله سبحانه وتعالى في الخلق في الأنفس، وفي الأمم والدول والشعوب، ذلك أن السنن الإلهية والقوانين الربانية في عقيدة المسلم جزء من رؤية كونية شاملة، مدارها ومحورها الرئيس؛ "الإيمان والتوحيد" فالكون يسير وفق سنن مضبوطة، وقوانين ثابتة ، ربانية تماما، ولهذه الميزة ترفعت من أن تكون ضد فلان أو علان من الناس، كما تحررت أيضا في الوقت نفسه من أن تكون متحيزة أو محابية لبعض البشر على حساب بعض.

ولما كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، ونالت حق الشهادة، والقيادة والوراثة، كان الواجب عليها تثوير معاني القرآن، واستنطاق آياته، واستنباط عبره، وتلمس معانيه الكلية، وسننه الحاكمة؛ لقيادة البشرية إلى نور العدل والإيمان، والخير والصلاح والفلاح[15].

ثانياً– خصائص السنن كما يعرضها القرآن

١– الثبات: أي تلازم السبب والمسبب فيها تلازما وثيقا وذلك كارتباط العلة بالمعلول حيث جاء في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحوِيلًا﴾[16].

٢– الاطراد: وهو استمرار الظاهرة بتكرار أسبابها أو شروطها، وهذا من حكمة الله عز وجل إذ أنه لا يفرق بين المتماثلين، فإذا قضى بإهلاك قوم ظالمين، فإنه كلما تكرر الظلم تكرر الاهلاك وهذا محض عدله.[17]

وقد وضح الله ذلك في قصصه لقصة لوط عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.[18]

٣– الشمولية: ان كلمة سنة عاملة وشاملة وبحسب نصوص الكتاب العزيز فان السنن الإلهية مهيمنة على جميع الافراد، دون تخصيص أحد دون الاخر او امة دون غيرها فقد قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[19]

٤– حتمية النفاذ: وهذا يعني أن سنن الله متحققة لا تتخلف ولا تتبدل، وأنها ستقع بالتأكيد لقوله تعالى: ﴿إِذا قَضى أَمْراً

---

[15] حداد إبراهيم، الفكر السنني عند ابن خلدون (ت 808 ه)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة السعدي تطوان 2022 https://shuhoud.com/%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%A9-%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1%D8%A7%D9%87-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%86%D9%86

[16] [سورة فاطر: 43].

[17] أمزيان، محمد بن محمد: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، ط، 1991م، ص287.

[18] [سورة هود: 83].

[19] [سورة النساء: ٢٦].

فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[20]، وهي تتبع الخصائص السابقة، يقول جل شأنه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾.[21]

تؤكد هذه الآيات بأنَّ سننه وقوانينه كما هو الأمر في قضائه متحقِّقة لا محالة، لأنَّ السنن نوع من القضاء[22]، ولا رادَّ لأمر الله ولا لقضائه، ولن يستطيع البشر بكلّ ما أُوتوا من قوَّة وجبروت أن يحولوا دون وقوع سننه تعالىٰ وتحقّقها، فوعده صادر عن إرادته الازلية، وعن حكمته العميقة، وقوته المطلقة[23]

ثالثاً– أهمية التفسير السنني من خلال دوره في النهوض الحضاري للأمّة

إنّ ارتباط قضية السنن الإلهية بالنهوض الحضاري، هو ارتباط المقدمات بالنتائج، والسبب بالمسببات، فلا يمكن الحديث عن نهوض حضاري إلا بالحديث عن سننه وإعمال هذه السنن، ولن يصلح حال الأمّة ولن تستعيد عافيتها ونهوضها الحضاري إلا بالوعي بالسنن واستثمارها والتوافق معها، ومتى أعرضت عنها وتنكّبت هديها خسرت وخابت كما خاب أمثالها؛ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [24]

هنا يتحدّد أنّ غاية التفسير السّنني للقرآن الكريم تحقيق النهوض الحضاري للأمّة، مثلما أنّ الهدف من دعوة القرآن إلى التدبر السّنني «استخلاص الدروس والعِبر التي تستفيد منها الأمّة المسلمة وتسترشد بها، لتصحح مسارها العمراني البشري على النحو الذي يحقّق لها العيشة الهنية في طمأنينة وسلام، وأمن واستقرار، أي: تنطلق من القرآن إلى العمران»[25]

منهج الله الذي سَنّه للمؤمنين جميعًا. وهو منهج ثابت في أصوله، موحّد في مبادئه، مطّرد في غاياته وأهدافه... فهو –سبحانه– يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ليرحمكم، ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزَّلَل، والتوبة من المعصية، ليمهّد لكم الطريق، ويعينكم على السير فيه.[26]

وبحسب المفكر الجزائري الطيب برغوث: " فان أهمية القراءة السننية للقصص القرآني تنبع من أهمية النظرة الشمولية للتاريخ، وأن انعدام هذه النظرة لدى المسلمين، والمصلحين خصوصاً، هو سبب المآسي التي تتخبط فيها

[20] [سورة آل عمران: ٤٧].
[21] [سورة فاطر: ٤٣].
[22] خصاونة، عماد عبد الكريم، قزق، خضر إبراهيم، السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، الناشر: المكتبة الشاملة، كتاب نصي، ص40.
[23] القرطبي، محمد بن أحمد (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، ط 2003م، ج ١٦، ص٢٨٠.
[24] آل عمران: 137].
[25] كهوس، رشيد، مركز الماجد للثقافة والتراث، دبي، ط1، 2017م، ص22
[26] دوقية فاطمة، التفسير السنني، مصادره واقسامه https://tafsir.net/article/5497/at-tfsyr-as-s-sunany-mfhwmh-wmsadrh-w-aqsamh-w-ahmyt-h

النهضة الإسلامية منذ قرنين، رغم الجهود الطويلة والكبيرة التي بذلتها، ففداحة النقص الذي تعانيه من هذه الناحية، وغياب حقيقة هامة عن وعيها، وهو أن هناك فعلا قوانين وسننا تحكم تطور التاريخ كما تحكم الفعل فيه، يجب توجيه الجهود كلها إليها، وأن عدم الاهتمام بهذه الناحية قد أدى إلى ضياع هذه الجهود، وتفرقها، وضمورها بعد حين، وقد فاقم من هذا الوضع أن الفقه الإسلامي، والتراث الإسلامي عموما، أهمل هذه الناحية كثيراً، فلم يهتم بها، بل ربما لم يع حتى وجودها ".

ولابد أيضا من التأكيد على الأهمية البالغة للوعي السنني في حركة الصيرورة الاستخلافية، وخاصة عبر القصص القرآني.[27]

*** القصص القرآني**

أولاً– تعاريف

القصص في اللغة بحسب ابن فارس[28]: القص يدل على تتبع الامر، مأخوذ من قولك اقتصصت الأثر إذا تبعته، ومن ذلك القصاص بالجراح بأن يفعل بالأول مثلما فعل بالثاني. والقصص هي الأخبار المتتبعة يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.[29]

أي أن مادة القصص تبنى على التتبع ويمكن أن يكون ذلك التتبع حقيقياً كقص الشعر أو كقص العظام، أو بشكل معنوي كقص الأخبار ومنها قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.[30]

إذاً يمكننا أن نعرّف القصص: بأنها الإخبار عن الماضي بصورةٍ متتابعةٍ، وقيل إنّ القِصَّة هي: الخبر أو الأمر، أو قال –تعالى–: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.[31]

والقصص القرآني: هو الإخبار والحكاية عن الأمم الغابرة بما جاء بها في كتاب الله جل وعلا، وذكر أحوالهم، وسير أنبيائهم، وما حدث معهم في واقع الحياة [32]. فأحداث التاريخ تتكرر وتتشابه، حيث وراءها سنن خاصة تحركه او تكيفها .[33]

ويتشعب القَصص القرآنيّ إلى ثلاثة شعب رئيسية: اثنين من التاريخ والثالث من الواقع الحالي:–

الأول– قَصص الأنبياء، عليهم السلام ومُعجزاتهم، ومراحل دعوتهم، وأساليبها، والأحكام التي نزلت عليهم، وبيان موقف المؤمنين والكافرين، كما جاء على سبيل المثال في قصّة إبراهيم

---

[27] برغوث، الطيب، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، مصدر سابق.
https://sunaniya.net/1443/01/16/%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A1%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8 /

[28] ابن فارس، أحمد (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ - 1979م، ج 5، ص 11.

[29] [سورة آل عمران: 62].

[30] [سور الأنعام: 57].

[31] [سورة آل عمران: 16].

[32] معبد، محمد (ت 1430 هـ)، نفحات من علوم القرآن، الناشر: دار السلام، القاهرة، ط 2، 2005م، ص106.

[33] المغربي ايمن غنام، السنن االالهية في ضوء القران الكريم، رسالة ماجستير جامعة ام القرى 1428 ه ص 66.

ويونس وعيسى، وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والثاني- قَصص أشخاصٍ لم تثبت نبوّتهم، وقَصص قرون سابقة؛ كقصّة طالوت، وقصّة ذي القَرنين، وقصّة أهل الكهف، وقصّة أصحاب الفيل، وقصّة مريم -عليها السلام- ، وقصّة أصحاب السبت، وغيرها من تلك القَصص.

والثالث- قَصص تبيّن الأحداث التي وقعت في زمن الرّسول محمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم-؛ كقصّة غزوة بدر وأُحد كما وردتا في سورة آل عمران، وقصّة الهجرة، وكثير من السير والوقائع التي حدثنا عنها القران الكريم بشكل قصصي كحادثة الإسراء والمعراج، وغيرها ممّا كان زمن الرسول صلى الله عليه وسلم[34].

ثانياً- أغراض القصة في القرآن

نذكر من الأهداف المهمة للقرآن الكريم

١- إثبات الوحي

وذلك بأنَّ القرآن قد أحاط بجل الأمم السابقة، فمع أنه صلى الله عليه وسلم لم يتعلم لغة جديدة كما احتج بذلك كثير من أهل العلم، وفي ذلك دليلٌ على صدق ما أتى به، وأنه وحي من الله.

١- بيان أن دعوة الأنبياء واحدة وان الدين عند الله الإسلام وما دعا الأنبياء الا الى الايمان بالله وتوحيد جل وعلا ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[35].

٢- الدِّين هو دين التوحيد والله لا يقبل من عباده إلا ما كان مبنياً على ذلك، تلك هي دعوة الرسالة وهذا ما ينبغي أن يقوم عليه دعوة أتباع الرسل :﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.[36]

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[37]، وهكذا دعوة كل الأنبياء.

٣- العُقْبى في الصراع للمسلمين والتمسكين بالوحي حق التمسك، والهزيمة للكفار الذين يصدون عن سبيل الله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.[38]

٤- الايمان بوعد الله ووعيده، والإنذار والتخويف، وأنه آت لا محاله في الوقت المناسب؛ كما في قصة لوط لما ظن قومُه أنهم سيصلون إلى ضيوفه بقوتهم وضعف لوط أمامهم، جاء النصر: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[39]، وكذلك في بدر؛ حيث نصَر الله القلة على الكثرة.

٥- بيان نِعم الله على أنبيائه وعباده المخلصين؛ جما جاء في القصص كقصة سيدنا يونس وداود وسليمان وما أفاء الله عليهم من النعم: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقدِرَ عَلَيهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ

---

[34] المصدر السابق، 107.
[35] [سورة الشورى: 13].
[36] [سورة هود: 50].
[37] [سورة هود: 61].
[38] [سورة غافر: 51].
[39] [سورة هود: 81].

ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱستَجَبنَا لَهُۥ وَنَجَّينَٰهُ مِنَ ٱلغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـــجِي ٱلمُؤمِنِينَ﴾.[40]

٦- تنبيه الناس الى عداوة الشيطان الازليه ولى ادواته ودأبه واساليبه في غَواية الشيطان، وتبين هذه الأساليب لتستبين سبيل المجرمين: ﴿قَالَ أَنظِرنِي إِلَىٰ يَومِ يُبعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَا أَغوَيتَنِي لَأَقعُدَنَّ لَهُم صِرَٰطَكَ ٱلمُستَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّن بَينِ أَيدِيهِم وَمِن خَلفِهِم وَعَن أَيمَٰنِهِم وَعَن شَمَائِلِهِم وَلَا تَجِدُ أَكثَرَهُم شَٰكِرِينَ﴾.[41]

٧- بيان عظمة الله وقدرته غير المحدودة؛ كما في قصة خَلْق آدم وعيسى عليهما السلام:[42]، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

ثالثاً- مفهوم السننية في القصص

جاء ذكر قص القصص من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، على سبيل الامتنان لقوله تعالى: ﴿نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحسَنَ ٱلقَصَصِ بِمَا أَوحَينَا إِلَيكَ هَٰذَا ٱلقُرءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبلِهِۦ لَمِنَ ٱلغَٰفِلِينَ﴾[43] اذا فالقصص القرآنية تعد من نعم المولى في كتابه العزيز على هذه الامة وهذه القصص حقيقة لم تكن للتسلية كما قد يظن البعض فإن غرض القرآن أسمى و أعلى من هذا، ولو كان كذلك لساوى كثيراً من قصص الأخبار الحسنة الأخرى، حيث ان اغلب القصص هدفها التسلية، اما الوحي الشريف فانه شيء ارفع واسمى من هذا بكثير.

وقد أدرك أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصراً على حصول العبرة والموعظة مما تحويه هذه القصة من عواقب الخير أو الشر، ومن الدروس والعبر التي تؤخذ من مصارع الغابرين والجبارين، بل الهدف من ذلك أسمى واجل، حيث أن هذه القصص لعبراً جمّة وفوائد كبرى لا تكاد تحصى.[44]

فإن أحداث التاريخ قصص تتكرر، وسنن ثابتة مطردة على مدار الزمان. فقصص القرآن كنوز مستمرة، معين لا ينفد من العبر والدروس، في كل المجالات، في الايمان وفي العمل والدعوة، فضلا عن التربية و الاعداد، وبالإضافة الى السلوك والاخلاق، بل هي أيضا دروس في الصبر والثبات، وفي الموازين والحقائق فكانت تلك القصص بلسما لجراحات المسلمين في زمن الضعف ، مطمئنة لهم لحسن العاقبة، حافزة لهم في طريق العمل و الريادة .[45]

هذا علاوة على أن أفضل الفوائد والفرائد وأهم الدروس والعبر في القصص القرآني هو تحذير الناس و تنبيههم الى سنن الله -تعالى- في نشوء الدول واندثارها، وتأثير أعمال الخير والشر فيها، ومطالعة أمر الله في أحوال الكافرين وسنته المطردة التي -لا تتعطل- فيهم: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

[40] [سورة الأنبياء: 87، 88].
[41] [سورة الأعراف: 14 - 17].
[42] [سورة آل عمران: 59].
[43] [سورة يوسف: 3].

[44] ابن عاشور، محمد الطاهر (ت1973م)، التحرير والتنوير، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 65/1.

[45] مجلة الداعي الشهرية، الصادرة عن دار العلوم دجوين، جمادى الآخرة 1437هأ، مارس - أبريل 2016م، العدد: 6، السنة: 40.

تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.[46]

فنلاحظ أن القرآن يأخذ من كل قصة أهم ما فيها ويعرضها عرضاً جميلا متناغما متزّهاً أن تكون الغاية للتفكه أو التّسلي، ولذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتابعة متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة و متوزعة على أحوال تناسبها، لأن اغلب العبر الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، وهو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه.

وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها؛ فكان أسلوبه قاضياً للوطرين وكان أسلوباً بديعاً صفة البرهان وصفة التبيان، ونجد من مميزات قصص القرآن نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص.[47]

فالقصص في القران الكريم تُمثِّل الصورة النابضة والعملية التي ترسُم الأوامر والأحكام في مشاهد حقيقة، فقد جبل الناس على التأثر من خلال الواقع العملي ضمن القصص الحية الواقعية أكثر ممَّا يتعلمونه من خلال التعاليم الجافة المجردة.

رابعاً– أهمية القراءة السننية للقصص القرآني

ان لتتبع القوانين والسنن واستنطاقها أثر كبير في فهم حركة التاريخ، واستيعاب القوانين التي تحكم الحياة، وتتجلى أهمية ذلك في عدة أمور منها:-

١– ان معرفة تشريع الأنبياء والرسل، هو معرفة الامة لتاريخ اسلافها، ومؤكدا بان تشريعنا الإسلامي جاء تتويجا لتشريعات الأنبياء السابقين ومكملا ومهيمنا عليا جميعا.

٢– معرفة تلك السنن والقوانين، لترتيب المسببات على مسبباتها سواء كانت في الخير او كانت في الشر وما ينبني على ذلك من الخراب والعمران والتمكين او الهلاك والاندثار للأفراد والأمم والشعوب. وما في ذلك من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها حتى يرعووا عن غلوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين، ويمكنهم فيها إذا قاموا بما انيط بهم وحققوا كمال التوحيد وتمام الاتباع، قال تعالى: ﴿لَقَد كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبرَة لِّأُوْلِي ٱلأَلبَٰبِ﴾.[48]

٣– في حكاية القصص أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهوداً للعرب فكان مجيئه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية، شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع، ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه، (مثل: أحوال الناس في الجنة والنار وغير ذلك).

٤– تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وتاريخ عظمة الأمم، والاعتراف لها بمزاياها؛ حتى تدفع عنهم وصمة الغرور.[49]

٥– معرفة السنن في القصص القرآني يرفع همة المسلمين ويدعوهم الى سيادة العالم، كما سادت أمم من قبلهم في

---

[46] [سورة الرعد:31].

[47] ابن عاشور، محمد الطاهر (ت1973م)، التحرير والتنوير، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

[48] [سورة يوسف: 111].

[49] الطيب، جليلة، القصص القرآني وأهميته وفوائده، بحث منشور على النت،- https://portal.arid.my/ar .

الأرض، ويجعلهم يستقرئون أسباب النصر والتمكين كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد كَتَبنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِن بَعدِ ٱلذِّكرِ أَنَّ ٱلأَرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.[50]

فالمسلمون موعودون بوراثة الأرض في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تكون العاقبة للمؤمنين، كتب هذا شرعاً وقدراً، أما قدراً :كتبه في اللوح المحفوظ، أن الأرض يرثها الصالحون، وكتب ذلك في الكتب السماوية، التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن.[51]

﴿أَنَّ ٱلأَرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[52] أنها أرض الأمم الكافرة، ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه.[53]

ففي هذا الدين ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها فقط هو المطلوب فحسب، ولكن المطلوب ايضا هو ما سبق مع الاهتمام بضمير الإنسان، ليصل هذا المخلوق الى كماله المقدر له في هذه الدنيا، فلا ينتكس حيواناً في وسط الحضارة المادية المبهرة، ولا يهوي إلى الدرك بإنسانيته وهو يصعد إلى القمة في استثمار موارد الثروات فإن الوراثة الحقيقة الأخيرة هي للعباد الصالحين، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم، وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح، وقد يقع التمكين للآخذين بالوسائل المادية حين يترك الأخذ بها من يدعون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المسلمين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغا لِّقَومٍ عَٰبِدِينَ﴾[54].. إن في هذا الكتاب وما يكشفه من سنن في الكون والحياة، ومن نواميس، ومن مصائر الناس في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى ومن قواعد العمل والجزاء.. إن في هذا لبلاغاً وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله، أي لل﴿عَٰبِدِينَ﴾ لأن العابد المؤمن خاشع القلب طائع جاهز للتلقي والتدبر والاعتبار.

ومن أهمية القراءة السننية للقصص القرآني أيضا:-

*** اليقين بتبدل الأحوال وتغيير الأوضاع على صعيد الأمم والمجتمعات**

فإن أحوال العالم والشعوب والاقوام لا تستمر على حال واحدة، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وتبدل من حال إلى حال، كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في البلاد والأقطار والأزمنة

[50] [سورة الأنبياء: 105].
[51] ابن كثير، إسماعيل (ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة، 1420هـ، 2/ 102.
[52] [سورة الأنبياء: 105].
[53] الطبري، محمد بن جرير (ت310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1422هـ - 2001م، 137/16.
[54] [سورة الأنبياء: 106].

والدول[55]. ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.[56]

وبذلك نرى أن الإنسان الذي يعطل سنن الله في العمران والاجتماع ولا يمضي وفقها ولا يستنير بنور العلم وهدايات السماء، فلابد عندها أن تتقاذفه الأهواء لأنه فقد المعيار فصار صيداً ثميناً للهوى والشيطان، وهو يبتعد عن منهج الله العظيم، فيتبع الظنون والأهواء.[57]

اما المسلمون الأوائل فقد ادركوا انهم المعنيون في سرد قصص الأنبياء والرسل والأمم السابقة، ففهموا تلك القوانين ووعوا تلك السنن، فان من شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم، هو أن نفهم، بل نفقه هذه السنن فقهًا شاملاً ، وكيف تعمل تلك السنن ضمن الناموس الإلهي أو ما نعبر عنه بـــ «فقه السنن» ونستخرج من خلالها ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية، والمعادلات الحضارية)).[58]

وأقول لابد من الدراسة السننية للقصص القراني، وهي أمر كما اوضحنا فوق بل أرفع من قضية استخلاص العبر من هذه القصص فحسب.

فالقصص القرآني جاء يعالج قوانين و سنن ضمن سياقات ادركها من ادركها , وجهلها من جهلها، ولعنا نأخذ مثالا على ذلك ضمن دراسة قصة طالوت وجالوت .

* **السننية في قصة طالوت وجالوت**

أولاً– سنة الصراع بين الحق والباطل

آيات كثيرة وردة في الكتاب العزيز لتبين ان الكون قائم على التنازع بين الحق والباطل، وهذه سنة من سنن الله في الافراد والأمم، فضلا عن كونها سنة كونية لا يستثنى منها أحد، فالسنة جارية في إقرار الحق واحقاقه في التكوين، وابطال الباطل وابطاله: " يريد الله ان يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون"[59]

"بل نقذف بالحق على الباطل فاذا هو زاهق "[60] دلالة على علو الحق على الباطل فاذا هو زاهق حيث دل حرف المفاجأة على سرعة محق الباطل عند وروده، لان للحق جولة فهو سريع المفعول و التأثير [61].

ثانياً– السننية في قصة جالوت وطالوت

هذه القصة العظيمة جاءت لتعالج الحالة الغثائية، وكيفية اخراج امة مستضعفة من حالة الغثائية الى حالة الفعالية، وما هي القوانين والسنن الناظمة لذلك:–

---

[55] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محم (ت 808هـ)، مقدمة تاريخ ابن خلدون، تح: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط2، 1408 هـ - 1988م، ج1، ص37.

[56] [سورة غافر: 85].

[57] سعيد، جودت (ت 1443هـ ـــ2022م)، حتى يغيروا ما بأنفسهم، الناشر: مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 8، 1989م، ص213.

[58] الغزالي، عبد الحميد (ت 2011م)، المشروع الإسلامي لنهضة الأمة، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ص58.

[59] الانفال 8

[60] الأنبياء 18

[61] المغربي ايمن غنام، السنن الإلهية في ضوء القران الكريم، رسالة ماجستير جامعة ام القرى 1428 ه ص 173.

١ – مقدمة القصة

قبل البدء بالقصة، يتحدث القران عن اقوام خرجوا هاربين من الموت فأتاهم بغتة، ثم احياهم الله، ففراهم من الموت لم ينج منه فقد اتاهم بغتة وهم يهربون منه

ثم جاءتهم الحياة دون ان يطلبوها يقول تعالى في ذلك ﴿۞ أَلَم تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم وَهُم أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلمَوتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحيَـٰهُم إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يشكُرُونَ

حذر الموت يعني كراهية الموت وهي احدى مميزات المرحلة الغثائية كما أسلفنا، أي ان الهروب من الموت قد يوقع فيه، وان من يطلب الموت تأتيه الحياة وهذا من السنن التي يمكن استخلاصها من تلك المقدمة البسيطة.

ونأتي الى اول القصة: –

أَلَم تَرَ إِلَى المَلَإِ مِن بَنِي إِسرَٰءِيلَ مِن بَعدِ مُوسَىٰ إِذ قَالُوا لِنَبِيّ لَّهُمُ ابعَث لَنَا مَلِكا نُّقَـٰتِل فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَل عَسَيتُم إِن كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَد أُخرِجنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبنَايِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوا إِلَّا قَلِيلا مِّنهُم وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّـٰلِمِينَ.

يقول الامام الالوسي في تفسير هذه الآية : أي ابعث لنا نبيا يقيم امرنا، و قد كانوا قد رأوا كيف خلف يوشع بن نون موسى عليه السلام فأقام فيهم كتاب الله، ثم خلفه كالب ـــ ثم الياس ثم اليسع وبعد ذلك ظهر اعداءهم العماليق، الذين غلبوا على كثير من بلادهم و اسروه أبناء ملوكهم، حتى كان نبيهم شمعون الذي طلبوا منه الملك، و قد اجيبوا الى ذلك ، وهذا يوكد ان طلب الملك و الأمير هو طلب شرعي محق والا لما كانوا اجيبوا اليه . فقد كان قوام بني إسرائيل الاجتماع على الملوك وطاعة انبيائهم، بل لعلها هي حقيقة اغلب الشعوب والملل، فوجود الملك او الأمير يجمع الناس ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .

إلا قَلِيلا مِنهُمْ﴾ وهم الذين اختاروا المواجهة طاعة لله، بالرغم من قلة عددهم، وتجاوزوا النهر وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر كعدة اهل بدر ﴿واللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّـٰلِمِينَ﴾ وهذه إشارة الى ان المقصود بالظالمين هنا هم الذي تولوا يوم الزحف وتركوا أوامر الله، وانهم الذين ناقضوا أقوالهم بأفعالهم 62 . وهذا تنبيه خطير وتحذير شديد الى الذين يركنون الى الدنيا ويتركوا أوامر الله عندنا تتعين .

﴿وَقَالَ لَهُم نَبِيهُم إِنَّ ٱللَّهَ قَد بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلمُلكُ عَلَينَا وَنَحنُ أَحَقُّ بِٱلمُلكِ مِنهُ وَلَم يؤتَ سَعَة مِّنَ ٱلمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصطَفَيهُ عَلَيكُم وَزَادَهُۥ بَسطَة فِى ٱلعِلمِ وَٱلجِسمِ وَٱللَّهُ يُؤتِى مُلكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيم﴾

وتبدو هنا جليا مظاهر السطحية من جديد، في قولهم ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ﴾ فالقوم معيارهم المال ومقياسهم الغنى في اختيار الملك او القائد ، اما نبيهم فيلفت نظرهم الى الأصل الذي ينبغي ان يلتفتوا اليه والى المزايا الأهم المطلوبة في القائد او الملك الا وهي العلم و القوة .

---

62 | الآلوسي، محمود بن عبد الله (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، ١/

فالعمدة هو وفور العلم؛ ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن؛ ليكون أعظم خطرا في القلوب، وأقوى على كفاح الأعداء، ومكابدة الحروب، لا ما ذكرتم ولسبب اخر وهو ان الله مالك الملك و هو يتصرف بملكه من يشاء، وليس للعباد الا ان يسمعوا ويطيعوا .[63]

وأهل السمع والطاعة هم الذي اجتازوا العقبة، التي كانت امتحان النهر في النهاية.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّم يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فالماء من اهم الأمور المادية للجيش الذي يستعد للقاء عدوه هذا عقل، اما النقل او الوحي جاء بعكس ذلك ، ضمن مراحل التمحيص، فمنعوا من الشرب الا غرفة يسيرة، و لم يثبت في هذا الامتحان الأخير العسير الا القلة القليلة التي اطاعت ملكها المعين من نبي الله عليه السلام.

وكان القصة تريد ان تخبرنا او تقعد لقانون وسنة ثابتة: أن الانتقال من مرحلة الاغاثية الى مرحلة الفاعلية والتمكين لا تتم الا باتباع تعاليم الوحي ولو تعارضت أوامره مع ما تحب الانفس وتشتهيه.

وينقسم أولئك الى القوم الى فئة طلبت ملكا، وفئة طلبت تغير الملك، وفئة شربت من النهر، وفئة لم تشرب من النهر.

اما الفئة الناجية او التي استحقت النصر، فهم أولئك الذين يظنوا انهم ملاقوا الله، فعملوا بمقتضى أوامره، و اجتنبوا نواهيه:-

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾

وهي الفئة التي تحولت واتجهت الى الله بالدعاء بالصبر والثبات

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾64 .

أي اعنا عليهم بقهرهم وهزيمتهم، فقد توسلوا بوصف الربوبية، والافراغ هنا يؤذن بالكثرة وطلبوا الثبات وأيقنوا ان الدعاء بعد ان أعدوا العدة خير زاد عند اللقاء.[65]

فكانت النتيجة ان المعركة حسمت بكلمة واحدة فهزموهم بإذن الله، وكأن الآيات تؤكد ان المطلوب هنا هو الاعداد وطاعة أوامر الله فهنا السنة وهذا قانون النصر ـــ فاذا تم ذلك كما امر الله جل وعلا فان المعركة عندها محسومة، ربما كانت هذه الآيات مقدمة لأعداد المسلمين في المدينة لغزوة بدر الكبرى

فالقصتان متشابهتان، حتى من حيث العدد فان عدد اهل بدر كان كالعدد الذي بقي مع طالوت .

ففي الصحيح عن البراء بن عازب رضيي الله عنه كان يقول: -

[63] القاسمي جمال الدين، محاسن التأويل 247

[64] البقرة 250

[65] الالوسي، روح المعاني، مصدر سابق

كنا نتحدث أن أصحاب بدر، يوم بدر كعدة أصحاب طالوت : ثلاثمائة وثلاثة عشر. [66]".

وبعد ذاك التمحيص الطويل يتحقق النصر ، ومن هوان الطرف الاخر على الله انه حسم المعركة بحجر المقلاع من احد الجنود –داوود –عليه السلام، والذي سيكون ملكا و نبيا فيما بعد ، و وقد كان يومها مايزال راعيا للغنم ، قصيرا مسقاما مصفارا أصغر أزرق، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده ، لكن حصل قتل جالوت وهو رأس العمالقة على يده[67].

فكأن الآيات تبين لنا مراحل التمحيص، والأعداد التي تساقطت في الطريق، لتؤكد لنا ان النصر ليس بالعدد وانما بالاستقامة على امر الله، فهذا هو القانون .

*** الخلاصة**

حاولنا في هذا البحث الموجز تسليط الضوء على مفهوم السننية بشكل عام، والسننية في القصص القرآني بشكل خاص حيث تبين لنا عدة نتائج لعلي اوجزها كما يلي:-

١- للقرآن الكريم الأثر الأكبر والأقوى في صياغة المفاهيم السننية والعمرانية والاجتماعية، وبيان مقاصدها وأبعادها العقدية والتوحيدية، فهو يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، ويوجههم إلى الأسس التي تجري وفقها الأمور، وتسير بحسبها حركة التاريخ، فالمسلمون ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وحللوها وفهموا وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الاحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء المجريات، واطمأنوا إلى دقة النظام و ثباته الذي تتبعه الوقائع .

٢- وهذه السنن بمثابة العهود والمواثيق الحاكمة على سلوك المجتمعات والأمم، بناء وحضارة وقوة ومجدا، أو اندحارا وتخلفا وتحللا وسقوطا. وهي قوانين ثابته لا تتغير .

٣- القصص القرآني مليء بالقوانين والسنن، التي تتجلى من خلال قصص الاولين ومصارع الغابرين وانتصار المستقيمين على منهج الله، وهي سنن ثابته مطردة لا تتخلف ولا تتقلب.

٤- ان هذ الفهم المستنبط من كتاب الله وخاصة من للقصص القرآني خير معين وأفضل حافز للمجتمع المسلم للانطلاق ولاستقامة على منهج الله، بل انه شكل رافعة هامة من روافع الأمة الإسلامية، في مسيرتها لتحقيق النهوض الحضاري، واستعادة دورها الريادي.

[66] أخرجه البخاري (3959)، والترمذي (1598) واللفظ له، وابن ماجه (2828)، وأحمد (18555)

[67] القرطبي، محمد بن أحمد (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، ط 2003م،